

ليلة القدر بين جلال الواقع وجمال المتخيل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

لقد منَّ الله على هذه الأمة بعظيم المنن وأكرمها بكريم الإحسان ، وأفاض عليها من العلم ما لم يُفضَّه على غيرها من الأمم ، وفتح لها من علم بعض الغيب ما جعلها تُبصر الحقائق ، وتفسر الظواهر ، وتستشرف الأيام بما يسمح لها بأن تتصرف التصرف السليم عند اشتداد الأمر واستحكامه .

ولقد كان الوحي العظيم ينزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيخبره عن دسائس الأعداء ، ومكائد المتربصين ؛ فكانت الأمة تتحرك وفق تعليمات هذا الوحي فتمنع الأعداء من النيل منها وتدفع الشر عنها .

وقدر الله عزوجل أن توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وانتقل إلى الرفيق الأعلى ؛ فرفع الوحي وتوقف ، فأخذت الأمة تستمدُّ من القرآن المنزَّل ، ومن سنة النبي المرسل ما يجعلها تخطط لقابل مستقبلها ، فتعيَّن عليها بذل الوسع في الاجتهاد ، وبذل الجهد في المحافظة على وجودها ، وأصبحت الأمة بذلك مجبرة على الاعتماد على نفسها في التحسس من كل شرٍّ يحاول المساس بها كيدا ومكرا ، وأحست الأمة بثقل هذا الجهد فبكت طويلا على فراق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لانقطاع الوحي بوفاة .

وحتى تبقى صورة الوحي مجسدة في الأمة أكرمها الله تعالى بليلة القدر ؛ تخلدُ تاريخ الأمة الواقعي وتجسدُ تاريخها المتخيل ، فأنزل الله سورة كاملة في القرآن تتحدث عن ليلة القدر بتصويرٍ خياليٍّ بديع تتطلع الأمة من خلاله إلى مستقبلها ؛ فتتواصل مع تاريخها العريق وترسم تاريخها المتخيل ، وبين الواقع والخيال تتكرر ليلة القدر كل عام لتصور ظاهرة الوحي في صورة متجددة تربط حاضر الأمة بماضيها ؛ فكانت هذه الليلة جاذبة لقلوب المسلمين حين أخذت أقطار قلوبهم تحرياً واستعدادا وحرصا على شهودها ؛ فهي ليلة مباركة أحبَّتْها نفوس المؤمنين فعانقت أرواحها عناقاً ، وتيمت بها قلوب المتقين فازدادت إليها اشتياقاً ، وتعلقت بها أفئدة المتعبدين فتلهفت نحوها احتراقاً ، ليلة الليالي ودائنة السحر أضاعت من غير قمر ، وتلّيت فيها آيات الذكر وقصص العبر ، ورُويت فيها روائع البيان وأجمل أحاديث السمر ؛ ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر واقعٌ للوحي خلّده ، وخيالٌ لنزول الملائكة جسّدته ؛ وحيث كان واقع الوحي معلوماً وانقطع بانقطاعه ؛ فإنَّ خيال الوحي كان متصوراً وبقي خالداً ما بقيت ليلة القدر ، وحديث القرآن عن ليلة القدر من خلال سورتها هو حديث ينزع نحو التخيل ؛ فهي سورة تحدث الخيال عن تفاصيل الليلة ؛ قال تعالى : " إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر " .

واستخدام القرآن الكريم لكلمة (وما أدراك) له سرٌّ خياليٌّ بديع ؛ ألا ترى أنه استخدم في مواضع كلمة (وما يدريك) فما الفرق بينهما ؟ .

ما يأتي بعد كلمة (وما يدريك) كله معرفة تراكمية يكون المخاطب غير عارف بها ، ولكن ما يأتي بعد كلمة (وما أدراك) فكله معرفة فنية ، ولذلك جميع ألفاظ السورة تنزع نحو فن الخيال وتأخذ بأفاهه كل مذهب ، فقوله تعالى : (خير من ألف شهر) جاءت الخيرية هنا مقرونة بالعدد المراد فهي تصوير خيالي في تقدير ليلة متعددة الساعات ؛ فيذهب الخيال كل مذهب في تقديرها ؛ فما الخير وما الألف؟، وهل هي مقدرة بالألف؟ أم أنها خير من ألف؟، وإذا كانت خيرا من ألف فما مقدار خيريتها؟؛ إنه خيال ساجح في كون السورة يعانق عظمة الليلة ، وكلما زاد الخيال عظمة في التصور زادت الليلة عظمة في الخيرية .

وقوله تعالى : (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر):(التنزل) هنا تفعل يدل على الكثرة الكثيرة من الملائكة ، وقد ذكرت بعض الأحاديث أنهم يملؤون آفاق الأرض وسماؤها بما لا يخطر على بال ، وجاء ذكر (الروح) هنا لجمال آخر يصور الإنزال ؛ فتعشق النفوس كنه هذا الروح ، وتتصور حقيقته ، وكأنه يذكرها بالروح المنزل بالقرآن ؛ فيصنع لها متخيلا لוחي الواقع الذي حدث على رسول الله .

وقوله تعالى : (من كل أمر) نكرة في سياق العموم تتحدث عن تفصيل المقادير وتحديد الآجال ووضع الموازين واختيار الأزمان ، وكل ذلك يذهب الخيال فيه مذاهب تزيد النفوس انبهارا بعظمة ما يحدث في هذه الليلة .

وقوله تعالى : (سلام هي حتى مطلع الفجر) : خيال آخر يؤثر في نفوس المؤمنين ما يجعلها تتسائل عن وقتها ، وجاءت كلمة (هي) هنا في المرتبة السابعة والعشرين من ألفاظ السورة ، وكأنها تشير إلى ليلة السابع والعشرين من رمضان؛ ثم تختم السورة الكريمة مسار الخيال بتعدد القراءات في كلمة مطلع الفجر بفتح اللام وكسرها؛ فالفتح يدل على الطلوع والكسر يدل على مكان الطلوع ، وحيث يدل الطلوع على بلدان المشرق الأقصى فإن ذكر مكان الطلوع هو تعميم لكل بلدان الأرض وأمصارها ، فتبقى ليلة القدر في الأرض ما بقي مكان يطلع منه الفجر ، ويسبح الخيال في هذا المسح الجغرافي بما يجعله لا ينفك متأملا في عظمة هذا التصوير .

فالواقع والمتخيل متجسدان هنا ، وحيث يتجسد الواقع مع المتخيل تحضر العبقرية لتصنع في الأمة وجودها ، وتبني كيائها ، وترفع بنيانها ، ووجدنا في أدبيات شاعرنا الكبير هذا المزج بين الواقع والمتخيل لما ربط بين ذكرى بدر، وثورة نوفمبر فقال :

نوفمبر غيرت مجرى الحياة وكنت - نوفمبر - مطلع فجر

وذكرتنا في الجزائر بدرا فقمنا نضاهي صحابة بدر

ولا شك أن المزاوجة هنا بين الواقع والمتخيل لها أبعادها النفسية والروحية في دفع الهمم نحو استقلال الجزائر ؛ الذي تحقق بفضل جهاد الأبطال من الشهداء والمجاهدين الذين حرروا البلاد من ربة استعمار جثم على كيائها دهرا طويلا، وقدموها لأبنائها أمانة محفوظة ، وإن من جمال المقارنات وبديع المصادفات أن تلتقي هذه السنة ذكرى بدر مع ذكرى استقلال الجزائر فليتقي تاريخان جليلان صنعا واقعا عظيما في التاريخ وأسس لتاريخين متخيلين ملهمين لكل شعوب الأرض فأما الأول فألهم الإنسانية حقوقها البشرية ، وأما الثاني

فألهما حقوقها في أن تعيش حرة مستقلة لا يقهرها استعمار ولا يهينها استعمار ولا يقف في وجه تطورها حاجز الاستبداد الغاشم .

وإننا إذ نذكر الصحابة ونترضى عنهم في كل وقت وحين فإننا نقف بإجلال عند هذه الذكرى ونترحم على شهدائنا الأبرار الذي هم أحياء عند ربهم يرزقون ونسأل الله أن يكرمهم في دار كرمته ويسكنهم فسيح جناته .

والجزائر التي أنعم الله عليها باستقلالها تدرك حقيقة الاستعمار وتبصر قيمة الحرية والاستقلال ولقد قدر الله عزوجل أن تكون الجزائر بلدا ذا لحمة واحدة رغم تعدد ثقافته؛ تتجسد فيه قوة الترابط الاجتماعي؛ فالشعب الجزائري بكل مكوناته هو مجتمع لا يعرف إلا الدين الإسلامي الحنيف بسماحته وطهارته.

وتعتبر هذه الميزة من الأسباب التي جعلت الشعب الجزائري يبقى واحدا وموحدا رغم الظروف التاريخية القاسية التي مر بها؛ فقد كان متفانيا في الدفاع عن خصوصياته الاجتماعية، وكان يعتبرها كنزا متوارثا من ماضيه العريق العظيم فكان بها عصيا على الأعداء؛ صعبا عند المحن، قويا عند الشدائد؛ فقد تغلب أبناء الجزائر على قنوات التطرف فسدوها بالحوار والتعاون، وتغلبوا على سبل الفرقة فسدوها بالتعايش المتراحم، وتغلبوا على أساليب العنف فأغلقوها بالجوار المتمدن.

وحيث لا نجد أرضا أخرى جمعت مظاهر التعايش في ظروف تاريخية ندر وجود ما يماثلها في العالم بأسره، فإننا بطنا بهذه البركة لا يمكن التفريط فيه، ووطنا بهذه الصفة لا يغتفر التنازل عنه؛ فهو سر بقاء المجتمع الجزائري؛ لأن بقاء هذا المجتمع مرهون ببقاء هذا الوطن، وحياته معلقة بحياة هذا الوطن، وقوته مستمدة من قوة هذا الوطن، ومن هنا كان التعايش مبنيا على أرض جامعة لكل أبنائها هي كالروح من الجسد، والدم من العروق هي أرض الجزائر.

ولقد وقف ابن باديس - رحمة الله عليه - وقفة عند هذا التعايش الفريد فأوجز فيه الوصف بلاغة وبيانا؛ فقال: " إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ وحد بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرناً، ثم دأبت تلك القرون تمزج بينهم في الشدة والرخاء، حتى كوَّنت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصراً مسلماً جزائرياً، أمه الجزائر وأبوه الإسلام " انتهى كلام الشيخ رحمه الله .

وابن باديس من خلال كلامه هذا يوجه أبناء الجزائر إلى الوحدة ويحذهم من الفرقة فالشعب الجزائري الذي عجز الاستعمار أن يفرق بين أبنائه لن يستجيب لدعوى الفرقة والاختلاف؛ وإن دعاوى الطائفية والعصبية ليست من سمات المجتمع الجزائري، وهي مرفوضة في مجتمعنا رفضاً قاطعاً لا رجوع فيه، وليس منا من دعا بدعوتها واستجاب لأبواقها، وإننا نقف هنا لنقول العبارة التي قالها من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دعوى التفرقة والاختلاف: " دعوها فإنها منتنة " .

وعلى الأمة أن تعلم أن أعداءها يتربصون بها ويكيّدون لها المكائد طمعا وحسدا، فعليها أن تأخذ للأمر أهبتها، ولا تنساق وراء أبواق الفتنة التي سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أبدع في هذا السياق ما قاله العلامة

الشيخ المبارك الملي رحمة الله : فعلى الجزائريين - وهم مسلمون - ألا يجعلوا اختلاف أئمتهم في جزئيات من دينهم سببا للأحقاد وعلّة للتضاد " انتهى كلامه رحمه الله .

والجزائر تنفي الخلاف وتأباه وتكره المكروه وتبعده ويصدق ذلك قول الإمام الثعالبي رحمه الله :

إنّ الجزائر في أحوالها عجب ولا يدوم بها للناس مكروه
ما حلّ عُسر بها أو ضاق مُتسع إلا ويسر من الرحمن يتلوه

فيا أبناء الجزائر والإسلام : اجتمعوا حول هذا النسب الأصيل وحافظوا عليه ، وتأملوا في هذا الأصل الكريم وافتخروا به ، وتجاوزوا عن بعضكم بعضا تجاوز المحسن على المسيء وتخلقوا به ؛ فليس في الحياة من يعوض الوطن إذا ذهب ، وليس في الحياة من يقوي الوطن إذا ضعف ، فكونوا أبناء وطنكم لا أبناء أهوائكم ، وجنود وطنكم لا جنود أطماعكم ، والتفتوا حول وحدتكم التي من الله بها عليكم ؛ فليس للخلاف قوة مهما كانت تستطيع فك هذه الوحدة وتفتيت روح الجماعة في الشعب الجزائري ؛ فهو قد أعطى عبر التاريخ الطويل دروسا في وحدته ومحبته ومودته ومسألته تبقى خالدة مع الزمن لا يمسحها حدث ولا يغطيها حديث ؛ لأن وحدة الشعب الجزائري صهرتها المصاهرة وصنعها النسب المشترك وهي بهذه الصفة ستبقى خالدة مخلدة .

ولكم في تاريخ البلاد ما يجعلكم تتجاوزن الخلافات ، فتاريخكم فخر لكل الأجيال ، وحاضركم فخر لكل البلدان ، وإن من المفاخر التي أسست لجمع الكلمة وتوحيد الصف ما قام به فخامة رئيس الجمهورية مخلدا للتاريخ وصانعا للمتخيل بإنشائه لجامع الجزائر الذي سيجعل الأمة موحدة لقرون أخرى ؛ فليس هناك ما يترجم التاريخ ويوحي بالمتخيل مثل جامع يجمع الناس على كلمة سواء ؛ يجدون فيه مرجعيتهم ، ويتحسسون فيه تاريخهم ؛ من هدي الصحابة الفاتحين ؛ إلى علم فقهاء الموحدين ؛ إلى بأس جنود المرابطين ؛ إلى سياسة دولة الأمير عبد القادر ؛ إلى شجاعة شهداء ثورة نوفمبر ؛ إلى تحدي رجال الاستقلال ؛ إلى عبقرية فكرة المصالحة ؛ إلى الاستشراف المثالي لتطوير الجزائر الحديثة ؛ إنه مسجد يعكس بعد الرؤية ، ويفسر عبقرية القرار ، ويدافع عن قوة التنفيذ .

فنسأل الله تعالى أن يديم رئيس الجمهورية ويطيل في عمره ، وأن يحفظه للبلاد والعباد ، وأن يهيئ له البطانة الصالحة التي تأمره بالخير وتدله عليه ، وأن ينعم عليه من الصحة والعافية ؛ وينصره ويؤيده ؛ فاللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عنا ، اللهم اكف بلادنا شر المتربصين وهب المسيئين منا للمحسنين ، اللهم إنا نسألك من خير ما سألك بينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ونعوذ بك من شر ما استعاذ بك منه نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، اللهم وما أعطيتنا مما نحب فاجعله قوة لنا فيما تحب ، اللهم وما زويت عنا مما نحب فاجعله فراغا لنا فيما تحب ؛ اللهم اجعلنا ممن صام وقام رمضان إيمانا واحتسابا ، واجعلنا ممن يقوم ليلة القدر إيمانا واحتسابا ، اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين واجعل بلدنا الجزائر بلدا آمنا مطمئنا وسائر بلاد المسلمين ، وصل اللهم وسلم على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

